منابع النيل [1]

حسب عقيدة قدماء المصريين وتقاليدهم

قليل من المصريين من يعبأ بالنيل من الناحية العلمية ومعرفة تطوراته بحسب النظامات الحكومية التي طرأت عليه لمناسبات تحسين الري وحسن التصريف في كميات الفيضان ، وقل أن تجد حتى عند ذوي الاطلاع معلومات تدل على اهتمام بهذا النهر الذي هو مصدر الثروة وينبوع الحياة ، بل ان أغلب الأمة المصرية لا تذكر شيئاً عن النيل إلا في أوان التحاريق بمناسبة التشديدات التي تتخذها مصلحة الري في وضع المناوبات واحتياجهم إلى تلقي الأخبار المبثة عن بدء الفيضان . وهذا هو منتهى اهتمام الزراع وأرباب الأطيان الواسعة . وأما أغلبية الطبقات من الأمة حتى المشتغلين بالعلوم العامة في المدارس بأنواعها وطبقات الصناع والتجار ، فلا يحسبون للنيل حساباً ، ولا يعتنون بشيء من أخباره إلا في مقتضيات محدودة من الزمن مثل حفلة وفاء النيل (رقم ١) وباقي الأعياد المتداخلة في أشهر الفيضان عند بعض الطوائف ، فاذا انقضت هذه المدة ، أغفلوا النيل جانباً ، كأنهم ليسوا من سكان واديه أو من القاطنين في أراضيه التي كرّمها الله بالخصب والرغد ، وجعله لها مصدر السعادة ومهاد الثروة .

خصّ كثير من المؤرخين النيل بمباحث مطوّلة عن البعثات التي كُلّفت باكتشاف ينابيعه وطرق سريانه في الأودية ، ووسائل الانتفاع به ، وما تحويه مسالكه من المعادن والآثار ذات الخواص . وهذا المبحث مفيد من الوجهة العلمية التي تتطلب المزيد من الوضوح كلما تقدم العقل في ارتقائه المرقاني . ووصوله إلى حقائق لم تكن معلومة من قبل

---

(١) بمناسبة سرور عالمنا سنة على تاريخ اكتشاف « منابع النيل » تحرر المقال الحالي القيم للعلامة الاستاذ الطوخي وكرى الثقة بمؤلفاته الدرية وأدين مكتبة المتحف المصري عاطفا

رقم ١ — عروس النيل حسب قول عمرو بن العاص

وغرضنا البحث الآن عما كان للنيل من المزايا الخاصّة المترتبة على عقائد وتقاليد

تداولها قدماء المصريين حسب اعتقادهم . فمن ذلك ما قاله هيرودوت (رسم رقم ٢) إنما مصر هدية من هدايا النيل (رسم رقم ٣) ، وكلمة هذه الصغيرة تشمل واقع الأمر لأن النيل كثيراً ما الحياة بفيضاناته الدورية التي يعبر عنها في أقاليم الصعيد بلفظة « شرقاوة »

رقم ٢ — رسم لهيرودوت أب التاريخ

والبداهة ترشدنا إلى أن مجرى النيل . وما يحيط بشواطئه كلها جزء الصعيد سطوة النيل من بحيرة الأقاليم ، واختص هذا الجزء المقتصب بالمقتضيات الطبيعية من خصوبة لجاء بحسن الأنبات ، وامتاز بالموقع الثمين ، وأحاس المجهودات الانسانية التي يدع الأهالي على التهيأ ووسائلها في تقسيم المناطق الى بدائن وحياض وحدائق ، وتخطيط لكل موقع ما يناسبه من الاحتياطات الزراعيه ولم يشيدوا المباني في البلاد إلا في أندر عندوة

من أطرافها ، لتكون مناطق المزارع خالية من عوائق التقسيم والترتيب وحرية الانتفاع ، وليكون أهل كل قرية عوناً بعضهم لبعض في حقوق الجوار والارتفاق ، وصد الطوارىء جرياً على عادة الجماعات التي كانت راسخة في أخلاق المصريين قبل أن يتغلب عليها التقليد الأجنبي الحاضر الذي أفقد النفوس كثيراً من مزايا التعاون والمحبة والاخلاص .

* * *

وكان قدماء المصريين يجعلون للنيل احتراماً اعتقادياً لكونه السبب الفعال في صيانة أرواحهم من مهالك القحط والجدب ، وانتشار المجاعة واستحكام الضيق ، إذ كان

رقم ٣ — مصر هدية من النيل حسب وصف هيرودوت

عوام الناس وخاصتهم مقبلين على الزراعة والاعتناء بها أكثر من كل شيء ، ولم يكن الاعتناء بالصناعات والأحوال الأخرى الأدبية إلا في بعض المدائن التي كانت تقوم بالحاجة الكافية لمجموع الأهالي . وبهذا كانت التجارات على جانب من الرواج ، وأولو البراعة في العلوم كانوا على منتهى درجات الاحترام والتوقير ، اعترافاً بفضلهم ، وتشجيعاً لذوي الاستطاعة على أن يحذو النجباء حذوهم في فضلهم ومعارفهم ، وكانوا

يقدمون للنيل بعض اعتبارات كالعبادة ويسمونه (حعبي) رقم (٤) أي الاله المقدس .

وكانوا يمثلونه بصفته إلهاً مقدساً (حعبي) ويتصورونه إله الخصب والابن المربي على شكل رجل في ريعان الشباب بديناً نشيطاً كرجل مترف غني من العظماء يعلق على تمثاله حلياً في الصدر يشبه صدر المرأة ، وبطنه مكوباً من الشحم ، وفخذاه ابتتان مستديرتان تشبهان فخذي القادة الحسناء . وهكذا كان المصريون يمثلون رجالهم الاغنياء العظماء

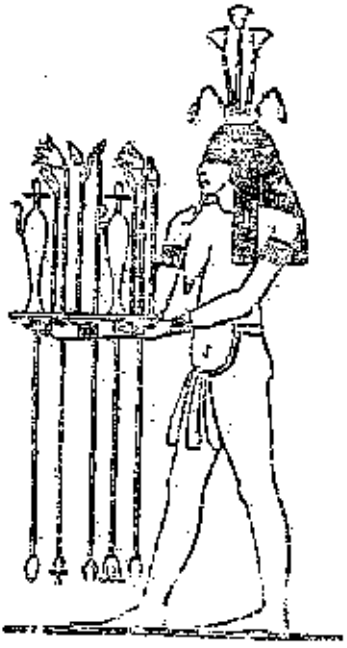

رقم ٤ — الاله حعبي (النيل)

وعدم إلمام المصريين القدماء بمعلومات عن منابع النيل كان شأناً عاماً ، ولا يعدونه تقصيراً في الوجهة العلمية . وقد لاحظ ذلك المؤرخ الشهير هيرودوت الذي قدم لمصر قاصداً البحث ، وجمع الدلائل في هذا الشأن ، حتى قال : « لم يعرفني أحد شيئاً عن منابع النيل » وأيدت رأيه أنشودة النيل القديمة التي كانوا يترنمون بها في المواسم والاعياد ويعترفون فيها « بأن النيل آت من الظلمات » .

وذكر في كتاب الموتى « أن النيل مولود من « رع » أي الشمس التي هي أكبر الآلهة عند المصريين القدماء . ويقرب من هذا المعنى أنه وجد مكتوباً في ورقة بردية (من ضمن أوراق كتب التحنيط) نص بالمعنى الآتي (في بطاقة عند مقبرة أحد الموتى) :

« انك أيها الراحل في لحد الخلود، سيفيض عليك النيل في مضجعك الأخير أثراً من بركاته لأن ماءه آت من مدينة «أبو» (أي جزيرة أسوان) وهذا النيل ينفجر من هوته هذا، وهو الخارج من ينبوع صخري، كأن الفيضان يغور من خزائنه، والمياه تتدفق من ينبوعها

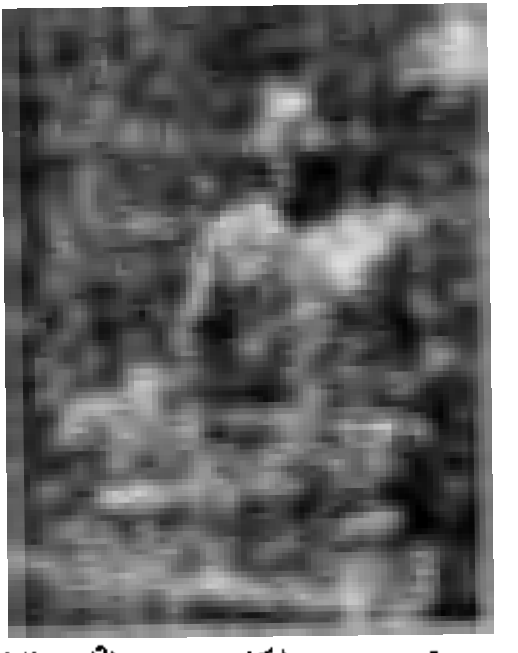

رقم ٥ — رسم لكاتب جميل من الأسرة الرابعة
(والأصل بالمتحف المصري بالطبقة السفلى)
نقلاً عن كتاب Guide de Maspero fig. 18

رقم ٦
المبردة نيت
إلهة مدينة صايس

وقد قال هيرودوت إن أمين (رسم رقم ٥) مصمد الآلهة «نيت رقم ٦» بمدينة «صايس» أخبره بأن بين مدينة (سيين) بطيئة ومدينة جزيرة أسوان جبلين أولهما يدعى باللغة المصرية القديمة « كروفي » أي هوته ، والثاني (سوني » أي مياهه ، وبين هذين الجبلين تنفجر منابع النيل من هوة عظيمة ، وينسب الماء منها تارة لطبيعة الحواجز الصخرية هناك الى شطرين أحدهما الى مصر في الشمال ، والآخر الى اثيوبيا في الجنوب

وقد اجتهد هيرودوت لما أتى الى مصر بمباحثه العلمية من الوجهة الجغرافية ، وحاج كثيراً من طبقات الكهنة ، فلم يبوحوا له بشيء من معلوماتهم الا فيما يتعلق بعظمة ومكانة الراسخة في الفرس كمبوديزدون له فرائض العبادة والاجلال ما استطاعوا ، وخصوصاً

في الأوقات التي حددوها لذلك عند بدئه في الزيادة وبلوغه منتهى الفيضان ، ومبادىء تصريفه في الأقاليم ، ورتبوا على ذلك الأعياد والمواسم الشهيرة التي ما زالت تراعى في الاحتفالات السنوية ترحيباً بوفائه ، وشكراً لما يضفيه على الأرض من نعم الخصوبة والرغد .

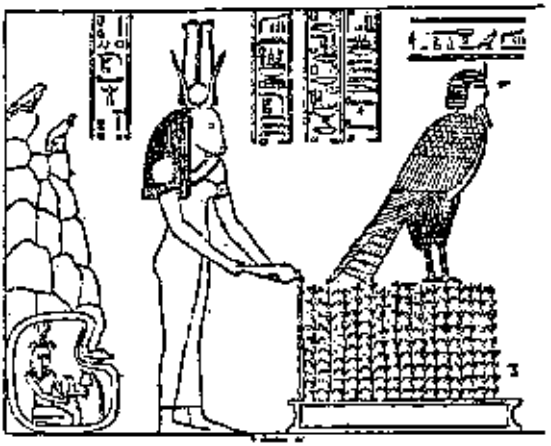

رقم ٧ — النيل في مخبئه وفوق الصخور رسما الصقر والباشق

وقد اكتشفوا في معبد « فيلة » الذي شيده الأمبراطور « تراجان » واحتفظ عليه خلفاؤه من بعده رسماً يمثل لنا الاله « حعبي » (النيل) في مخبئه (رسم رقم ٧) وتفسير هذا الرمز « أنه » يوجد فوق صخور مرتفعة عليها رسما الصقر والباشق ، وفي حجرة يرى بداخلها هيكل إلهي لاله راكع حاملا في يديه آنية تخرج منها فيوضات النيل المباركة ، ويجد الرائي مرسوماً على رأس الحجرة حية ملتفة على نفسها ، وبين رأسها وذنبها منفذ ضيق لمرور النيل ، وهذا الرسم فسره كاهن مدينة « سايس » للمؤرخ هيرودوت بأنه منتهى معلوماتهم عن منابع النيل ، فهو يفيض من عند الله لم تصل استطاعة أمنائهم لاكتشاف أوائله غير ما هو مشاهد للزائرين في أطراف وادي النيل ، ويقصد الكهنة بذلك وقوف الأمة عند هذه النقطة ، وعدم التطلع الى مباحث أخرى .

وكان علماء المصريين مع كثرة الرموز العلمية ، وسعة المعلومات المحفوظة في الصدور ، والمرموز إليها في بعض المخلدات الأثرية لا يسمحون لمعاصريهم ولا لزائريهم من حجاج الممالك بالتوسع في مباحث عن ينابيع النيل وأوائل مصدر فيضه ، لأنهم يعتقدون أن البحث في ذلك ممنوع دينياً ، وتعرض المشتغلين به لحلول النقمات التي تنذر بها الكتب المقدسة ، كل من يسعى الى عمل يؤدي الى كفر أو ضلال . وكانوا يعتقدون أن النيل فيض من

البركات الإلهية ينزل من السموات العلى إلى داخل الأرض ، فيكون منها الرغد والسخاء وصلاحية الأرض لكل نبات يختاجه الانسان في أدواره المعاشية ، ولهذا كانوا يسمونه أب الآلهة (أنف نثروا) . ولم ينفك قدماء الباحثين من المصريين الى أسباب الزيادة في النيل في أزمنة الفيضان ، لاعتقادهم أنه قصيٌّ في تكوينه وفي تأثيره وفيما تبصر الخلائق عنه ، لأنه سرٌّ من فيض البركات الالهية ، اختصَّ الله بها هذه الوادي السعيد ، وجعله الى الأبد مصدر الرفاهية والسعة والاغداق بأنواع الأرزاق التي تفي باحتياجات قاطنيه ، ويسد العوز لكل الطبقات التي تأوي إليه ، ويجدون فيه من سجايا أهله حرماً آمناً .

وقد اجتهد علماء المباحث المصرية من النيل وينابيعه ومصادره العليا مثل هيرودوت وسترابون وديودور الصقلي ، وعلماء الرومان كالمؤرخ بلين وسنيك وغيرهم من الفلاسفة فلم يستطيعوا سوى الوقوف عندما ألقاه إليهم الكهنة عن عظمة النيل ، وأن منابعه ترجع الى قدسية مصدره الالهي ، فاضطروا للإذعان خاضعين لعقائد وتقاليد قدماء المصريين في شأنه ، ولم يتجاوزوا في مباحثه الى ما وراء الشلالات ، وإلى ذلك أشار هيرودوت بقوله « ان النيل يعرف مبدؤه بعد سفر أربعة أشهر سواء كان ذلك براً أو بحراً ، وهي المدة التي كان يستغرقها المسافر في وصوله الى جزيرة اسوان .

واستمر الناس على الاعتقاد بأن ينابيع النيل مما يتعسر على الباحثين حل غموضه الى عصر الرومان ، فأرسل نيرون بعثة رسمية لاكتشاف هذه المنابع ، فوصلت بعد مستقعات واسعة الى صخرين تجري فيهما المياه فظنوهما المنابع الأولى للنيل ، وعادوا يتوهمون لأنفسهم الظفر بما لم يستطع غيرهم الوصول اليه .

وقال بلين أن منبع النيل آتٍ من جبل يقاني الواقعة شمال افريقية . وقال سنيك إن منبعه يبتدىء في ضواحي مدينة «نيلة» . وقال المؤرخ « لوكين » إن منبع النيل الحقيقي لم يعرفه أحد في العالم » ووافقه على ذلك المؤرخ « أميان مرسلان » أحد علماء القرن السابع للمسيح ، وإن منتهى ما وصلت اليه الاجتهادات وتجوال البعثات في رحلاتها أن منابعه آتية من بحيرات أفريقية الوسطى . وكان قدماء الباحثين يضربون الأمثال بمعرفة منابع النيل في استحالة الوصول الى غرض يرضي ويقنع الباحثين .

وقال المقريزي في وصف مصر « إن النيل يظهر على الأرض بقرب وادي القمر بقرب الاستواء » . وقال « جرانفيل » « إن — النيل فردوس أرضي » . ولا تزال هذه العقيدة عند قدماء المصريين رغماً من توالي السنين ، وظهور الاكتشافات العلمية التي تحتم بمقتضاها أن يتحول الناس عن عقائدهم الأولى التي توارثوها في أجيال ماضية .